

وفي هذا تختلف هذه المحاولة عن محاولة أخرى حديثة حاول فيها أحد الباحثين أن يسوغ العطف السابق في بيت أبي تمام على أنقاض فكرة « الجهة الجامعة » وليس من خلالها . فهذه الفكرة تعد من وجهة نظره تحكما محضا في عالم الشاعر ، في حين أن العلاقات الوجودية بين الأشياء عند الشاعر العظيم لها ارتباطها الوجداني الخاص الذي لا يخضع بالضرورة لمنطق عقلي عام . والبديل الذي يطرحه ما أسماه « تراسل ماهيات المعاني » بمعنى الأضواء والظلال التي تكتسبها المتعاطفات لمحض التجاور والارتباط ، وإيجاءات التداعي ، وما إليها مما يتصل ببنية التعاطف التي يريد الشاعر خلقها ، وفي بيت أبي تمام تحقق هذا التراسل بين جملي « النوى صَبر » و « أبا الحسين كريم » ذلك أن كون الفراق مرا حقيقة مقررة بحسب العرف والتجربة والعادة ، بل بحسب التراث الشعبي والأدبي أيضا . فإذا عطف على هذه الحقيقة « كرم أبي الحسين » ألقى المعطوف عليه (مرارة الفراق) بظلال المعاني السابقة على الجملة المعطوفة ، « بحيث يدخل « كرم أبي الحسين » في مجال إيجاءات الجملة السابقة ، وهو مجال ذو جاذبية خاصة ، لأنه يدخل في حكم الواقع المقرر بل والمُقَسَّم به ، وهذا ما أراد الشاعر أن يبثه في خيال السامع » (١٠٤) .

والفكرة جيدة وتستحق التأمل والمناقشة وقد أفاد الباحث فيها من بعض الاتجاهات النقدية الحديثة ، كما يدل كلامه في موضع آخر (١٠٥) .

على أن فكرة « الجهة الجامعة » ليست موضع الانتقاد الوحيد في مبحث الفصل والوصل عند هذا الباحث ، فقد أخذ أيضا على عبدالقاهر والبلاغيين من بعده قصر اهتمامهم في هذا المبحث على الجمل دون المفردات ، يزعم أن عطف الجمل هو الذي تكمن فيه دلالات بلاغية ، أما المفردات المتعاطفة فليس لها شيء من ذلك ؛ ومن هنا جرى النظر إليها عندهم في إطار من الفكر النحوي التقليدي ، مع « أنه من الواضح - كما يقول - أن نسقا معيننا للمعطوفات قد يعطى

(١٠٤) الدكتور عفت الشرقاوي ، بلاغة العطف في القرآن الكريم . دراسة أسلوبية (بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٨١ ، ص ١٢٢ .
(١٠٥) انظر السابق : ص ١٥٨ .